

الأصعبات

قصته بقلم محمد خضير

سحب دراجته نحو البيت ، وظهرت امرأة ملفوفة بالسواد من خلف التور الملتهب ، وقال الفتى الحليق عبر النهر :

- يا امي ، الديك ولد في الجيش ؟
- نعم ابني علي .
- علي قاسم ؟
- نعم هو ، تعرفه ؟

مسح الفتى رأسه ، ونظر للحقبة المعلقة بمقود الدراجة :

- انا قادم من هناك ، انه صديقي ، انا وهو في نفس الوحدة .
- كيف حاله ؟ هت مدة طويلة دون ان يكتب لنا رسالة ، كيف هو ؟
- يا امي ولدك قد ..

التفت الفتى للحقبة المعلقة في المقود ، وتطلع للبيت والسطح ولجرى النهر ولوجه المرأة الملوّح باللهب ، وقالت المرأة الملفوفة بالسواد :

- اهذه حقبيته ؟
- هذه ؟ .. لا ، حقبيتي .
- لديه حقبة مثلها ، كيف هو ؟
- بخير وبعث بسلامه اليكم ولطفلته حليلة .

انتظر متطلعا حوله ، وكان دخان خفيف رمادي يعقب السنة لهب التور ، ومن زاوية الفرقتين خرجت طفلة في السادسة ، وقدمت نحو النهر .

- انه يسأل عن طيوره .
- هناك فوق في البرج على السطح . اترى البرج ؟
- ارى جزءا منه كما ارى صفائح التنك المظلة على الحوش . لم انصوّر انه مالك هذا العدد من الطيور .

- لم لا تعبر البنا ؟ القنطرة هنا ، ابوه خرج لتكريب النخل ومعه زوجة ابته .
- سأتارك الدراجة هنا .

اسند الدراجة لجذع ، ثم عبر قنطرة انصاف جنود النخيل المظافة بالتراب المتناسك ، واثاء عبوره الحذر شاهد طيور الحمام تخرج من صفائح التنك المثبتة مع ضلعي الفرقتين وفي زاوية التقائهما . كان الماء يجري تحت القنطرة في سورات لامعة ، وغير التور كانت تثبت شجرة عالية عند الضفة ، وثلاث نخلات طويلات ، ربطت بين اثنتين منها ارجوحة ، تحاول الطفلة التي خرجت من الفرفة الصعود الى حاملتها .

- استرح هنا يا بني . ابن اتمم الان ؟
ساعد الزائر الطفلة على الاستقرار في حمالة الارجوحة المقتطعة من كيس خيش ، وجلس على الحصير الذي فرشته المعجوز تحت الشجرة الواسعة الظل :

- نحن الان على الحدود ، اتم استبدالنا اخيرا من الجبهة .
- ومتى سيحصل ابني على اجازة ؟
- اجازة ؟ قريبا . ربما في الشهر الذي ياتي . ألم تسمعه في الاذاعة ؟

- لا . ترك راديوه الصغير هنا ولكن لا احد يفتحه ، دعني اقدم لك شيئا .

علي جادة السكون الظللة بمراوح السعف ، كان فتى حليق الراس يتحرك فوق دراجته الخفيفة ، كالثائم ، بين جدول واطي مزبد بخيوط تشبه رغوة الصابون ليسار ، وجدار من الطين المهتمد لليمين . تبدا من حافة الجدول المشب ارض تبعثت فيها جنود النخيل واعشاب السوس والحلفاء المتوحشة ، كما كان جدار الطين يحجز ارضا تنخفض عن الجدار تتجاوز فيها جنود النخيل التي تشق بيئها الجداول وتقطبها تماما الاعشاب الدقيقة الزهرة والاشجار البرية الواطئة واشجار الرمان وعرائش الكروم المتسلقة على الجنود . تنفجر الجادة بشمس قوية في حين يحل فيء ساخن فوق اعشاب غابة النخيل وجاداتها الضيقة المحاصرة . وكالثائم ، كان الفتى لا يسمع صوتا حتى لعجلتي درجته العاريتين وهما تدوران على غبار الجادة الناعم ، ولكنه يشم روائح ازهار الدفلى والازهار البرية في المنخفض النسائي اسفل جدار الطين وخلف الجدول المزبد . ومن كسرات الجدار كانت تخطف بصره المبهور باشعة الشمس خلال السعف ازهار الرمان الجمراء المختبئة في كثافة ظل الاوراق ، وحرارة الإحجنة الرمادية لطير (الفاختة) ، غير ان ازهار الدفلى في اغصانها المتدلّية في الجدول الواطي ترسم في الماء بين ظل السعف كنقوش في ثوب مخطط . وفي منطقة فيء غزير كانت فروع شجرة توت ضخمة تجتاز الجدار حتى منتصف الجادة ، استند الفتى بقدمه للجدار بعد ان اوقف حركة الدراجة ، واخذ يلتمس ثمار التوت السوداء . ترجل عسّن دراجته واستندها للجدار ، وقطع الجادة منحدرًا على ضفة الاعشاب الزاحفة ليفسل اصابعه الدبقية في ماء الجدول ، ثم شرب وبلل رأسه الحليق مفترقا الماء براحيه المكورتين . انصت لاقدام خافتة ، وظهر ثلاثة كلاب دخلوا من ثقب في الجدار للارض المنخفضة . وثانية حل في رأسه ذلك الفو المريح حين امتطى دراجته ، ونشرب بالسكون ذي الرائحة الساخنة ، ومن بين جفنيه راقب بعينيه الممفطنتين انفصال اجزاء دراجته على التراب ، وكانت العجلتان الموجتان تتسلقان الجدار وتعثران في حفرة وثقوبه ، ثم طفتا في السكون بتوازن ، واصبح الفتى يتحرك على قم النخيل ، منهمكا في غفوه بمراقبة الحيات المتحفزة المختفية في منخفضي الاعشاب : حياة كرات نبات (الخرنوب) اليابسة ، حياة الثمار الأعناق غير الناضجة ، حياة بويضات احياء الجداول ، ثم الحياة الاكثر غموضا وتحفزا في الحقبة المعلقة بالمقود . وفجأة حدث هجوم الحيات المختبئة وكادت تلقي بالفتى في الجدول اسفل الجادة - انتهى جدار الطين واعترضت الفتى اسلاك تمتد يمينا ويسارا مثبتة الاوتاد ، وباب نصف مفتوح من هذه الاسلاك . ترجل وقاد دراجته عبر الباب المثبت بين وتدين ، وسار في جادة ضيقة زحفت عليها الادغال الكالحة . بين جنود النخيل المزروعة في صفوف منتظمة طفت الجداول القصيرة المسنودة بماء اخضر فاقع ذي فقاعات ، وبأوراق الاشجار ، وبفراغات السماء بين غوص السعف . ثم دخل سقيفة من اشجار الكروم لم يكتمل نضج عناقيدها الكثيرة ، وخرج منها لشاطره يمتد من نهر غير واسع سريع الجرى ، حيث لمح غير بعيدة عنه نارا تلتهب في تور على الضفة المقابلة وتنعكس في الماء ببقعة ثابتة . وبين الخضرة الواطئة قامت غرقتان من الطين وسقيفة من القصب كأنها استخرجت من قاع النهر وبنيت هناك بشكل رقم (٦) غير بعيدة عن الضفة .

قطعت ساحة البيت نحو السقيفة ينسحب ذيل ثوبها الأسود على التراب ، وتبعثها دجاجة جاءت راکضة من وراء السقيفة ، وكان الحمام يحلق في سماء البيت او يلتقط ما يجده في ساحته .
- ما اسمك يا بنيه ؟
- حليمه .

- حليمه ، بابا يريدني ان اقبلك .

نهض الزائر وقبلها ، وكانت تفوص في حمالة الأرجوحة المشدودة من اطرافها الى الجبال المتينة ، وتلقي براسها على عضد ذراعها المسكة بحبل الأرجوحة ، يعكس شعرها القصير موجات حمراء ويكشف عن رقبتها النحيفة المنحنية . نظرت حليمه للزائر بجانب عينيها وطلبت منه ان يهز أرجوحتها . انحنى خلف ظهرها ثم دفعها دفعا خفيفا ولكنها طلبت ان يؤرجحها بقوة حتى تظير . وتلقى جسدها بعد ان رجعت اليه واحاط خاضعتها ثم دفع الأرجوحة فصعدت خارج ظل السقف فوق الماء ، وغمرت بالشمس ، ثم عادت الى الوراء فحاذ عنها ، ثم اندفعت ثانية خارج الضفة دون ان يصنها .

- تمسكي جيدا . ساجعلك تطيرين .

خرجت الأرجوحة من الظل بسرعة ، فسقطت الشمس على رقبة حليمه كحد السيف ، واجتازت خط قمم النخيل ، ثم عادت مسرعة واجتازت الظل من الجهة المضادة ، وكان فيها مفتوحا دون ضحك وشعرها ينفر عن وجهها في الصعود ، يزيد الضوء المفاجيء حمرته المتخلقة عن صبغة الحناء ، ولكن التاج ينطفئ فجأة عندما يرتد الشعر على وجهها في هبوط الأرجوحة . واستند واقفا للنخلة .
- ما اسم هذه الشجرة يا حليمه ؟

- بمبر .

- ما اسمها ؟

- اجابته العجوز التي عادت بقدم لبن :

- بمبر . انها لا تنطق الاسم صحيحا .

وقدمت اليه القدر :

- انه بدون تلج . لا يصلنا الثلج هنا .

- اللبن طيب حتى بدون تلج . كم بقرة لديكم ؟

قالت حليمه :

- ثلاث ، خرجت امي ترعاهن خلف البيت .

يذاها ممدودتان الى اقصاهما لتمسكا بحبال الأرجوحة ، وتدلنى شعرها القصير لاسفل لأنها كانت تلقي راسها للخلف وتتطلع الزائر بعينها القلوبيتين كلما هبطت الأرجوحة ، بعد ان يشغل هجوم المشاهد وسرعة مجرى الماء راسها ، لم يمس الزائر أرجوحتها ، وتركها تتأرجح بتوازن .

- الشمس تعمي عيوني .

من التنور الذي خبت فيه النار ، قالت جدتها :

- انها لا تنطق الكلمات صحيحة مع اننا سندخلها المدرسة السنة القادمة .

قال الزائر :

- كثيرا ما حدثني علي عن هذه الشجرة . قال انه كان ينام بين اغصانها في سنه الاولى .

- انا لا احب نهرها

قالت جدتها :

- ألم تاكل البمبر ؟

- لا ولكنه اخبرني ان البمبر يخنوي على سائل لزوج .

قالت حليمه :

- نواتها تلتصق باصابعك ولا تنفك عنها حتى ولو نفستها بقوة .

- لكنه لا زال غير ناضج ، كان يظن انه نضج ورغب ان اجلب معي

بعض البمبر .

قالت الجدة :

- اظنه لا ينبت في مكان آخر .
- لست ادري . وحدثني عن الأرجوحة .
- لم تتم حليمه في مهد ابداء . سرعان ما كانت تنام في هذه الأرجوحة .
ست سنوات وهي تنام فيها .
- هنا قرب الماء .

- كان علي يسبح في النهر وهي تتطلع اليه ويصعب عليها الوقوف داخل الأرجوحة .

سالت حليمه :

- اتعرف السباحة ؟

- نعم اعرف .

- اديكم انهار هناك ؟

- كثيرة ولكنها لا تشبه هذا النهر السريع . اتحبين الماء يا حليمه ؟
- اخاف الفرق . هزني الان .

تلقي الزائر الأرجوحة من الخلف بسان وضع راحته حول العمالة المثلثة بجسد الطفلة الصغير ودفعها بقوة فحلقت فوق النهر وانطبعت على سطحه منسحبة فوق الاشكال الطافية ، وبصوت ناقب نادته حليمه :

- ألم يطلب منك أبي ان تسبح ؟

- لا . ولكنه طلب ان اقبلك .

- قبلتني ، ولكنني اريدك تسبح .

نظر الزائر لامراه التنور التي كانت تعد العجين ، فقالت :

- رطب جسدي بالماء . دائما تطلب ذلك من ابيها .

- سأنفذ رغبتها .

- ولكن لا نستمتع دائما لها . رغباتها لا تنقطع .

خلع (دشاشته) وفانيلته خلف شجرة البمبر وعلقهما داخل الاغصان الكثيفة . قفز للنهر وسمع صيحة ابتهاج حليمه التي بترت حين غاص في الماء الأخضر . لما ظهر فوق الماء اطلق من فمه الماء ، وحاول ان يقاوم الجرى ليظل امام حليمه .

- لا زال الماء باردا .

- اسبح لهناك . استطيع ان تسبح للتنور ؟

- ذلك سهل .

- سياخذك الماء كيطة .

انسحبت امامه مسرعة مع تيار المد اللامع القمم الساكنة المتقابلة لصفي النخل في النهر ، واعشاب واشجار الضفتين ، وكان النهر ينمط على بعد خلف البيت ، وفجأة قبل ان ينمط كانت الجنوع تنهل في المجرى الفامض المظلل او تتبادل امكنتها من صفة لصفة وهي تسرع في الاختفاء مع النهر . ومن خلال القطرات التي تقفز امام عينيه وتموه نظره شاهد المرأة تقف وسط التنور كجذع متفحم ، وحين وصل ازاء التنور رآها تحبز العجين بين راحتيها وتمده على قرص قماش اسود وتنحني لتلتصق الرغيف اللدن داخل جدار التنور القوس الساخن ، وكانها ستنقصم وتفتت رمادا في احدى حركات اغصانها التمهلة . عند الجرف كان باستطاعته ان يمس قاع النهر بقدميه ، وان يكف عن العموم لمقاومة التيار والوقوف في مكانه امام التنور ، واخذت ترتطم بجسده الاوراق والحشائش وثمار التوت العائمة مع المد ، وكان يلتقط هذه الثمار ويلتهمها .

- لا زال الماء باردا .

- كان علي معتادا على السباحة صباحا في مثل هذه الايام .

- اتعرفين يا امي ؟ انا هنا كما لو كان هو . ولكنها ايام الحرب . وتمهل كي يتأكد كيف تضيع عينها في وجهها المتضائل ويكاد يغتفي

فهما في سكونها الرتيب ، كجذع فحم لم يقوى على الوقوف حتى يتبدد .

- لقد احببت المكان . انظري الي كاني هو الذي يسبح ويحاذلك

الان . لا تدعي غيابي يهكم كثيرا .

قالت امرأة التنور كلمات لم تنته محترقة مختلطة انطفاة في التنهر

وغطت عليها صرخة حليمه :

- ارجع تهنزي . استطيع السباحة على ظهره ؟
- كالبخرة . ذلك سهل .

وضع راسه ضد المجرى وجعل يرفس الماء بقدميه ويحرك يديه تحت جسده كي يبقى طافيا فأحدث زبدا كثيفا . سمع حلبيمه تصوت كالبخرة ، واطلق من فمه دفتات متتابعة من الماء ، كما شاهد الحمام يطق على برج السطح ، واوراق شجرة البمبر العريضة المترابطة على خضرة ممتمة ، واختلاط سعف النخلتين المرتفعتين ، والارجوحة التي تهذا بينهما يتقلص تحتها ظل السعف . دخل منطقة فيء الشجرة كأنه يدخل بئرا . تمسك بالأغصان المتدلية في الماء ، وسمع حلبيمه :

- اتعرف ؟ كان جدي جنديا ايضا .
سمع جدتها :

- ماذا قالت عن جدنا ؟

قالت حلبيمة :

- قلت له انه كان جنديا .

قال الزائر :

- كل الناس يصبحون في يوم ما جنودا .

سمع جدتها :

- حارب في الحرب العظمى . انها تستانس بالحكايات والايخبار التي يقصها لها .

قالت حلبيمة :

- يا لها من حكايا لطيفة !

قالت جدتها :

- واخبار ابيك . انتظري فقط كي ياتي في اجازة .

قال الزائر :

- نعم ، يا لها من اخبار . اخبار عجيبة يا حلبيمة .

سمع حلبيمة :

- فترت الارجوحة . هزني الآن .

خرج من ظل الشجرة ، وكان وجهه مبللا ، فسألته حلبيمة :

- هل احمرت عينالك ؟

- يحدث ذلك ان يسبح .

- لا . ابي لم تحمر عيناه يوما .

احاط عجيزتها داخل الحمالة ودفعها ، فافتقدتها في الشمس ، واحتواها حين عادت موقفا حركة الارجوحة :

- كيف انت يا حلبيمة ؟

- لماذا اوقفتها ؟ كانت دفعة جيدة ، ولم يهزني احد كذلك .

وكدابت ثانية في الشمس ، وعادت تضع راسها على عضد ذراعها الممدودة ، ساكنة الوجه وقد اغمضت عينها :

- ارى ابي . ها هو يؤرجحني في حضنه . ولكنه لا يتكلم كالآخرس . حلق شعر راسه مثلك ، وكاتي غريبة ، عنه فهو لا يعرفني ولا يتكلم ابدا .

فتحت عينها وقالت :

- اين ذهب ؟ كان معي يؤرجحني .

- لقد اختفى الآن حين تفتحين عينيك يختفي .

- اين ؟

- لنبحث يا حلبيمه . اتسلق النخلة ؟ كلا والا رايناها هل غاص في الماء ؟ لا والا اختنق اذا ما بقي طويلا تحت الماء . . اه . اتعرفين

اين ؟ في تلك الحقيبة . آتريتها يا حلبيمه ؟

- اية حقيبة ؟

- تلك في الضفة الاخرى . الحقيبة المعلقة في الدراجة .

- الحقيبة الصغيرة . كيف تسع جسده ؟

- ولكنه كالدخان . تذكرني يا حلبيمه انه كالدخان .

- لم اره جيدا . كنت في حضنه .

- اجلس معك في الارجوحة ؟

اوقف الجبال المهتزة وانزل حلبيمة ، ثم رفها تستقر في حضنه داخل حمالة الارجوحة ، وحاول ان يهز جسديهما بقدميه ، حين جاءت الجدة تحمل رغيها :

- الم تجوعا ؟ كلا بانتظار الغداء حين ياتي جدنا ، وساصمد لاطعم الحمام .

قسمت الرغييف الساخن بينهما ، وطلبا منها ان تهزها قبل ان تصعد للسطح .

- استطيع هزكما ؟

تحركت الجبال قليلا فقلبلا ، واسرعت الارجوحة فاجتازت الفياء ، بقليل ثم حلقت فوق المجرى ، وكادت الجدة تخنفي خلف السقيفة .

- اكنني لصدري يا حلبيمه واغمضني عينيك

- ثوبك مبلل .

- لم اجفف جسمي جيدا .

- اتعب البمبر ؟

- نعم . اشتهي اكل منه .

- انا لا احبه . وما هو اسمك ؟

- ستار .

- كاسم ابن المختار . نحن نلعب خلف المفسل ويريد ان ندخله .

- مفسل الموتى ؟

- نعم . ارنني ابي الآن . اراه يخرج من الحقيبة هناك وياتي نحونا . بلا راس ولا يدين ولا رجلين ودون ثياب . كالدخان .

- نعم . نعم .

- دعيه يقترب . تظاهري بالنوم ولا تفرغيه لانه لا يحب غير النيام كالموتى .

وقاوم الزائر مجرى النهر بيقظة عينه الواهنة ، يضم حلبيمه اليه ويعملها مطلقا ، يدخل معها الابواب المفتوحة بين جلدوع النخيل ذات مراوح السعف العريضة ، حيث تسمر بالففو الجميل اللين المبلل يدنو منه ايضا ، وكانا يخترقان اوراق الاشجار وازهار الرمان واعشاب السوس ، باتجاه مجرى المد اللامع .

- هل نمت يا حلبيمة ؟

- خرج من الحقيبة كالدخان ولم يتكلم .

- واين هو الآن ؟

- لست ادري . لقد ذهب . غاص في النهر .

- ولم يلينا هما كذلك ، ان غاصا اتره .

محمد خضير

البصرة (العراق)

رعدة الحروف والصفر

ديوان جديد

للشاعر الكبير

بلند الحيدري

٣٠٠ ق . ل

صدر حديثا